كتاب الموقف العربي

عام على التطبيع

عام على التطبيع

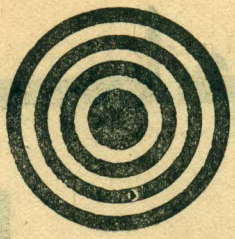

اشترك فى اعداده :

فتحى رضوان	د٠ حامد ربيع	د٠ حسن حنفى
د٠ لطفى عبد العظيم	مصطفى بهجت بدوى	د٠ مجدى حماد
عبد العظيم مناف	أحمد محمد عطية	وحيد عبد المجيد
عبد الحميد موافى	حسن أبو طالب	محمد مصطفى بكرى
عطية حسن عطية	رفعت سيد أحمد	كرم جبر

اشراف : عبد العظيم مناف

كتاب الموقف العربي

عام على التطبيع

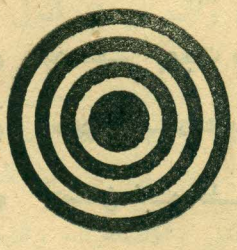

١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

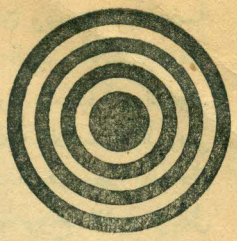

الأدب المصرى.. واليهود

• اليهود فى أدب نجيب محفوظ •

• وحيد عبد المجيد •

القارىء لأدب نجيب محفوظ يلمح فى ثناياه اشارات عابرة تعكس نظرة فئات شعبية مصرية لليهود • وتنتمى هذه الفئات عموما الى شرائح البورجوازية الصغيرة التى أجاد نجيب محفوظ تحليل شخصياتها : صغار الموظفين ، وصغار التجار ، والحرفيين ، والطلبة •

والجدير بالذكر أن أحداث روايات نجيب محفوظ التى تعكس نظرة هذه الفئات لليهود تغطى الفترة الزمنية الممتدة من نهاية الحرب العالمية الأولى الى نهاية الحرب الثانية • ومعروف أنه خلال تلك الفترة لم تكن الرؤية الشعبية المصرية لليهود قد تأثرت بعد باغتصاب اليهود لفلسطين العربية واقامة اسرائيل وتصاعد الصراع العربى ـ الاسرائيلى • وقد عبرت شخصيات نجيب محفوظ ، فى هذه الرواية ، عن رؤيتها لليهود بشكل عابر قد لا يثير انتباه القارىء ، ولكنه يعكس بعضا من أفكار ومشاعر الفئات الشعبية المصرية تجاه اليهود •

وتجدر الاشارة الى ملاحظتين فى هذا الصدد :

أولاهما : ان ورود هذه الآراء على لسان شخصيات نجيب محفوظ بشكل عابر لا يقلل من أهميتها ، بل على العكس ربما يزيد من درجة

مصداقيتها لما تنطوى عليه من عنصر التلقائية وعدم الافتعال ، مما ينفى عنها شبهة التحيز · فهذه الآراء لم ترد فى سياق يمكن اعتباره معاديا لليهود بأية حال ، بل جاءت فى سياق الأحداث الطبيعية للرواية وبمنأى عن أية اعتبارات سياسية ، وهى تنصب على اليهود كجماعة اجتماعية كانت تعيش بين الشعب المصرى ، لأن صورة اليهود كجماعة سياسية لم تتشكل الا فى وقت متأخر مع تصاعد الصراع العربى ـ الاسرائيلى ·

وثانيتهما : أن هذه الآراء وردت فى روايات نجيب محفوظ بشكل متناثر ، وعبرت عنها شخصيات هذه الروايات فى ظروف متباينة لا تجمع بينها رابطة واحدة · ولذلك ربما لا يكون من قبيل الدقة القول بأن هذه الآراء تمثل صورة شاملة للرؤية الشعبية المصرية ، بقدر ما تقدم عناصر أساسية لصورة اليهودى لدى فئات شعبية تنتمى الى البورجوازية الصغيرة المصرية ·

وعلى هذا النحو يمكن أن نعرض لملامح هذه الصورة فى العناصر التالية :

أولا : اليهودى يتميز بالبخل الشديد الذى أصبح مضرب المثل فى البيئة الشعبية المصرية · فاذا أراد المصريون وصف أحد الأشخاص بالبخل الشديد يجرى تشبيهه على الفور باليهودى · وتتضح هذه الصورة فى رواية (بداية ونهاية) ، حيث حسين كامل الموظف الصغير يعمل فى مدينة طنطا بعيدا عن أسرته التى توفى عائلها ، ولما كان هذا الموظف الصغير يتحمل مسئوليات ضخمة تجاه أسرته التى تعيش فى القاهرة ، فلم يكن بمقدوره أن يشارك الموظفين فى لهوهم يوم الأجازة الاسبوعية عندما يجتمعون بالمقهى ، ولذلك « كان الموظفون فى طنطا يدعونه باليهودى لأنه لا يقامر ولا يسكر ولا ينفق أكثر من قرش واحد فى القهوة » (١) ·

ثانيا : اليهودى يتميز بالاستغلال والجشع ، الأمر الذى يقتضى الحيطة والحذر عند التعامل معه · وتبرز هذه الصورة بوجه خاص لدى التجار المصريين · فالسيد سليم التاجر فى رواية « زقاق المدق » يتخذ احتياطات خاصة عندما يتعامل مع تاجر أو سمسار يهودى ، فيركز كل انتباهه فى حديثه معه « مستجمعا يقظته ، مستحضرا حذره ، يعجب لرقة محدثه ولطفه ، حتى ليحسبه الجاهل صديقا ودودا ، وهو فى الحقيقة نمر يتوثب ، يتمسكن ويتمسكن حتى يتمكن ، والويل لمن يتمكن منه » (٢) ·

فالتاجر المصرى تعلم عن طريق التجربة أن أمثال هذا اليهودى لا يؤمن شرهم ، ولكن ليس ثمة بد من التعامل معهم لضرورات العمل ، ولذلك كان السيد سليم التاجر يعتبر اليهودى « شيطانا مفيدا » (٣) ·

ثالثا : اليهود كجماعة اجتماعية يتميزون عموما بسلوكيات غير حميدة ، مما يجعل الاختلاط المتكرر بهم من الأمور غير المحببة ، وبالتالى

يستدعى الحيطة ازاء المصريين الذين يقيمون اقامة دائمة فى أماكن يكثر فيها اليهود · ففى رواية « السكرية » عندما أراد احمد شوكت أن يتزوج من زميلة له فى المجلة التى يعمل بها ، عارض أهله بشدة لأسباب منها أن أهلها يجاورون اليهود فى سكناهم · فعندما ذهبت أمه لزيارة عائلة تلك الفتاة عادت تقول ، وهى تكاد أن تتميز غيظا ، « وجدتهم يقيمون فى بدروم فى شارع كله يهود على الصفين » (٤) ·

رابعا : يرتبط بكل ذلك شعور المصريين بعدم انتماء اليهود المصريين الى التيار العام للشعب المصرى ، حيث ينظر المصريون الى اليهود نظرة مساوية للهكسوس والجراكسة وغيرهما من القوى التى تناقضت مصالحها ، فى فترات تاريخية مختلفة ، مع الشعب المصرى · ويمكن أن نجد هذه النظرة ، بشكل ضمنى ، فى احدى المناقشات التى كانت تدور بين طلبة الجامعة فى الثلاثينات كما عبرت عنها رواية « القاهرة الجديدة » ، فهذه المناقشات التى كان يشارك فيها طلاب ينتمون الى اتجاهات سياسية مختلفة كانت تتناول أوضاع المجتمع المصرى وكيفية مواجهة مشكلاته · وفى احدى هذه المناقشات وردت عبارة عارضة على لسان الطالب اللامنتمى محجوب عبد الدايم ، ولكنها تعكس هذه النظرة على النحو الذى يفتقد الى الوعى السياسى وان كان يعبر بالضرورة عن شعور دفين ، قال : « يعجبنى هذه الأسماء : احمس **والهكسوس** ، منفتاح **واليهود** ، عرابى **والجراكسة** » (٥) وعندما تأتى مثل هذه العبارات على لسان طالب لا ينتمى الى أى اتجاه سياسى ، فانها تكتسب قدرا أكبر من الأهمية لكونها لا تعكس رؤية سياسية أو فكرية مسبقة ·

خامسا : ومن العناصر الهامة التى تشكل رؤية الفئات الشعبية المصرية لليهود خلال هذه الفترة التى اتسمت بسيادة التقاليد الاجتماعية المحافظة فى مصر ، الصورة الشائعة للفتاة اليهودية · ويقدم لنا أدب نحيب محفوظ صورتين للفتاة اليهودية فى تلك الفترة :

(أ) صورة الفتاة اليهودية لدى نساء الأحياء الشعبية ، وهى صورة تتسم عموما بالخروج على التقاليد الموروثة للمرأة الشرقية · فاليهوديات « يعملن فى المحال العامة ومولعات بالعناية بالمظهر وتكلف الرشاقة والرطن بالكلمات » (٦) · ولكن هذه الصورة نفسها كانت تستهوى أحيانا الفتيات الصغيرات ذوات التطلعات الاجتماعية وتصبح مادة لأحلامهن ، وخصوصا عندما أصبح عمل الفتيات من الطبقات الشعبية ضرورة حيوية لمواجهة أعباء الحياة المتزايدة خلال فترة الحرب العالمية الثانية · ولكن هذا التطور لم يؤد الى تغيير فى صورة اليهوديات لدى نساء الأحياء الشعبية · فقد ظلت هذه الصورة تتسم بالسلبية الشديدة وتدعو الى ادانة أية محاولة من الفتيات للتشبه باليهوديات · ففى رواية « زقاق المدق » ، كانت حميدة

مولعة بحياة الترف وشديدة السخط على واقعها الاجتماعى الفقير ، وترى فى حياة الفتاة اليهودية نوعا من الترف الذى تتوق اليه ، فأثنت مرة على حياة اليهوديات على مسمع من أمها ، فكان رد الأم الغاضبة : « انك من نبع أبالسة ، ودمى برىء منك » (٧) · فلم يكن بمقدور المرأة المصرية فى الأحياء الشعبية أن تتصور أن تصبح حياة ابنتها كحياة اليهود التى نعتبرها حياة شيطانية جديرة بأن تتبرأ منها ·

(ب) أما الصورة الثانية ، فهى صورة الفتاة اليهودية لدى الشاب المصرى ·· ومؤداها أنها فتاة « جسور لعوب لا يردعها عن هواها رادع » · فأحمد عاكف بطل رواية « خان الخليلى » يراجع ذكريات صباه ، فيتذكر علاقته بفتاة يهودية حسناء من بنات الجيران · والصورة التى احتفظت بها ذاكرته أنها « كانت تلعب فى طريقه وترقب مرجعه من المدرسة فى نافذتها ، ولا تضن على عينيه بملاحتها ودلال أنوثتها » · ولما كان هو خجول ، فقد ظل على حيائه ولكنها « استطاعت أن تعالج حياءه بجسارتها ، وتبعته ذات أصيل حتى أدركته ثم نادته فالتفت اليها بوجه كالجمان ، فابتسمت اليه ابتسامة لطيفة فأجابها بابتسامة مقتضبة فى حياء وخفر فقالت له : « هل نتمشى فى شارع عباس ·· » ثم بعد ذلك « تعمدت أن تدنو منه وأن تلامسه فى رفق فجعل يبتعد عنها ·· ثم تأبطت يمناه وهى تضحك » · ولما وجدته خائفا « سألته فى دعابة : أتخاف ؟ فقال بصوت رقيق : أخاف أن يرانا أحد من بيتك · فهزت كتفها استهانة وقالت : لا تبال بهذا» (٨) ·

وهذه الصورة تشير ، كما هو واضح ، الى اليهودية كفتاة لعوب جريئة تأخذ المبادرة فى التصدى للشباب على عكس تقاليد المجتمع المصرى ، وهى فتاة مستهترة تستهين بالتقاليد ولا يردعها رادع من أهلها · ويبلغ بها الاستهتار أن تختفى من حياته فجأة بعد كل ذلك « فما هو الا أن خطبها شاب من بنى جنسها حتى هجرت لعبتها لتستقبل حياة الجد ، غير عابئة بالجرح الدامى الذى أحدثته فى قلب غض » (٩) ·

وكانت نظرة الشاب المصرى العابث الى الفتيات اليهوديات عموما خلال تلك الفترة أنهن مادة أساسية لحياة الفسق · فعندما نزل جنود الحلفاء بمصر خلال الحرب العالمية الثانية احتكروا نساء الهوى ، فأخذ هؤلاء الشبان ينعون حظهم بعد أن لم يعد بمقدورهم الظفر باليهوديات · ففى رواية « خان الخليلى » ، علق أحدهم على هذه الظاهرة بقوله : « ان اليهوديات عرفن أخيرا مزايا اللغة الانجليزية » اشارة الى تفضيلهن لجنود الحلفاء · فأجابه آخر (١٠) : « تراهن يرفلن فى الحرير فاذا اعترضت سبيل احداهن رمتك بنظرة شزراء ·

سادسا : ولكن رغم كل ذلك ، ورغم أن صورة اليهودى لدى الفئات الشعبية المصرية تتسم بالسلبية على هذا النحو ، الا أن هذه الفئات ظلت تعتبر اليهود من المؤمنين بالله • ففى رواية « قصر الشوق » ، يغضب السيد احمد عبد الجواد عندما يعلم أن ابنه من المؤمنين بنظرية دارون فى الأجناس • ويعجب لهذا الأمر لأنه لم ير أحدا من قبل ، بما فى ذلك اليهود ، لا يؤمن بآدم ، فيقول : « هذا هو الكفر بعينه ، هذا هو الاجتراء الوقح على مقام الله وجلاله ، انى أعرف أقباطا ويهودا فى الصاغة وكلهم يؤمنون بآدم ، كل الأديان تؤمن بآدم ، فمن أى ملة دارون هذا ••• » (١١) •

صورة اليهودى بين المجتمع والسياسة :

هكذا كانت صورة اليهودى لدى الفئات الشعبية فى مصر ، كما عبر عنها أدب نجيب محفوظ ، تتسم بالسلبية الشديدة خلال الفترة الممتدة من نهاية الحرب العالمية الأولى حتى نهاية الحرب العالمية الثانية • ولم تكن لهذه الصورة أية أبعاد سياسية فى ذلك الوقت ، بمعنى أنها لم تكن رد فعل للتناقض العربى ـ الصهيونى • فلم تكن الفئات الشعبية فى مصر تدرك الخطر الصهيونى على فلسطين والأمة العربية فى ذلك الوقت ، كما لم تكن مصر قد أصبحت طرفا رئيسيا فى الصراع العربى ـ الاسرائيلى ، ولم تكن قد خاضت أى حرب مع اسرائيل • ودلالة ذلك أن صورة اليهودى السلبية لدى الشعب المصرى لم تكن وليدة الحرب مع اسرائيل ، وانما هى سابقة عليها ومستقلة عنها • ولذلك فمن المرجح ألا تؤدى التطورات السياسية الأخيرة المقترنة بالتسوية المصرية الاسرائيلية الى تحسن فى صورة اليهودى لدى الفئات الشعبية فى مصر رغم ما حاولت بعض أجهزة الاعلام الغربية الايحاء به من حسن استقبال المصريين للوفود الاسرائيلية التى نزلت بمصر فى أعقاب معاهدة السلام •

● **الهوامش** ●

(١) بداية ونهاية « مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، ص ٣٠٧ •
(٢) زقاق المدق ، مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٤٧ ، ص ٦٣ ـ ٦٤ •
(٣) المصدر السابق ، ص ٦٤ •
(٤) السكرية ، مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ٣١٩ •
(٥) القاهرة الجديدة ، مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٤٥ ، ص ٤٦ •
(٦) زقاق المدق ، مصدر سابق ، ص ٢١٦ •
(٧) المصدر السابق ، ص ٤٠ •
(٨) خان الخليلى ، مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٤٦ ، ص ٣٤ ـ ٣٥ •
(٩) المصدر السابق ، ص ٣٥ •
(١٠) المصدر السابق ، ص ١٢٠ •
(١١) قصر الشوق ، مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ٢١٦ •